

معتقد أبي العلاء المعري

في الدين والخلق

ما كنت لا كتب في أبي العلاء المعري شيئاً لولا أن لي في مذهبه فكرة قدأ كون مسبوقة بالبحث فيها ، وان كنت لم أقرأ حتى اليوم بحثاً تناول معتقد أبي العلاء انتحى فيه ذلك المنحى الذى أنحود لى النظر في عقيدته . والحقيقة أن الناس مختلفون في أبي العلاء هل هو متدين ؟ ومن ثم يوجب عليه تدينه أنه يعتقد بوجود الله ، أم انه ألهى صرف يعتقد بوجود الله على اعتبار أنه علة العال ومصرف حالات هذا الكون ومبدعه ومدبره ومن ثم يجحد الأديان ، مستقلاً أمر الاعتناء بالإنسانية في جانب الله ؟ فان من الفلاسفة الألهيين من يقول بأن أمر العناية بحالات الإنسانية فوق هذه الأرض وبمنقلبه بعد الموت أمهاى أشياء لم تخرج عن كونها تصورات باطلة سيق فيها الإنسان بمقتضى غريزته وبقدر جهله بحالات العالم الطبيعية الخافقة به ، وان الله (سبحانه وتعالى) خلق العالم وبرأ الأحياء على مقتضى نوا ميس سبق في علمه أن تظل كما كانت وكماهى كائنة وكماستكون ، وسبق في علمه مع ذلك أن تكون هذه النوا ميس أبدية أزلية لا تتغير ولا تتبدل . فهو على هذا الرأى مصرف الكليات ومدبر الكون في مجموعته . وعلى ذلك يكون أمر العناية بسعادة الإنسان فوق الأرض وخللاصه بعد الموت ، أموراً جزئية فعلها مناقض لما سبق في علمه القديم أن يكون . أذكر لبعض الفلاسفة رأيهم هذا . واذا كرأنى أمضيت وقتاً ليس بالقليل مع أحد مشهورى الأدباء المعروفين نتصفح ما كتب أبو العلاء لنستخلص من آثاره كل شئ يدل على اعتقاده بوجود الله وبقدرته في الدين ، فوقفنا على كثير من الآراء المتناقضة والوان من مختلف النزعات في آبيات تظهر فيها عقيدة أبي العلاء في وجود الله ظهوراً جلياً واضحاً لا يشوبها شبهة ولا تحف بها ريبية ، غير أنك لا تأبث أن تجمع كل ما قال أبو العلاء مما يدل على اعتقاده بوجود الله ثم تذكر قوله :

قلتم لنا آله قديم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا

هذا كلام له خبيء معناه ليس لنا عقول

حتى تحف بك الريبة في حقيقة عقيدته في الله (سبحانه وتعالى)، فهو يسلم بأنه (سبحانه وتعالى) حكيم ولكن عقله يأبى عليه أن يسلم بأنه بلا زمان أو مكان! فكيف كل هذا؟ كيف يمكن أن نعتقد بأن الله حكيم وأنه علة العلال ومبدع الاشياء ثم في الوقت نفسه يشارك المعاولات في صفاتها من الحد بالزمان والمكان؟ السبب في ذلك يمكن تعاليه .

أرجع معي أيها الباحث الميراث برهة الى النظر في حالات جسمك الطبيعية وسائرني هنيهة في بحث طبيعي منطقي نخرج منه بنتيجة تعلل لنا السبب في أن أبا العلاء يسلم بأن الله حكيم ثم لا يستطيع أن يسلم بأنه بلا مكان ولا زمان

أنت انسان تبصر وتلمس ويسمع وتذوق وتشم وليس فيك من صفات تدل على وجودك غير هذه الصفات التي اصطلح على تسميتها بالحواس الخمس . وأنت في هذه الآونة تقلب بين يديك كرة من الحديد الأصم . هي مادة اصطاحت على تسميتها حديداً . سائل نفسك بعد ذلك كيف يمكن أن تعرف أن هذه الكرة خارجة عن حيزك؟ تعرف ذلك لانك تراها وتلمسها وتسمع رنينها إذا القيته على الارض . وقد تذوقها اذا وجدت لها عندك طعاماً وقد تشمها اذا كانت تنبعث منها رائحة . فاذا فرضت أنك فقدت حاسة البصر فانه يتعذر عليك أن تراها . واذا فقدت حاسة اللمس تعذر عليك أن تشعر بها : واذا فقدت حاسة السمع أستعصى عليك أن تسمع رنينها اذا ما أصابت جسمها صلماً تلقى عليه . اذن يترتب على هذا أنك لا تعرف لهذه الكرة من وجود خارج عن حيزك الا من طريق حواسك . واذن فكل ماتدرك من وجود الكرة راجع الى ادراكات كائنة فيك وليست خارجة عن حيزك ، وعلى هذا يتعين عليك القول بأن فقدان الحواس يمنع عليك ان تدرك للكرة وجوداً حقيقياً خارجاً عن حيزك ، مع أنك مع كل هذا لا تستطيع مطلقاً أن تعتقد بأن

الكرة ليست خارجة عن حيزك وعن وجودك المادى ، ذلك لان عقلك قد ركب عن أن يمضى معتقداً بأنها خارجة عنك بعيدة عن وجودك وان لها وجوداً آخر غير وجودك . على هذا جبل الانسان وعلى هذا تركب عقله ، فاذا اعتقد شخص ساعة بأن الكرة فى حيزه داخله فى وجوده وأخذ يؤدي عمله سائراً على هذا الاعتقاد ، فعندها نقول بأن ميزان العقل قد اختل وتفككت ألفته . ذلك لأن للعقل ألفة . لا بل لن تسلم الا بأن الكرة تشغل من المكان حيزاً خارجاً عن حيز جسم الانسان الشاعر بوجودها من طريق حواسه . هذا أمر سلم به كل المشتغلين بالعلم الطبيعى كما سلم به كل المناطقة ، فلنتركه هنيئاً الى بحث آخر يمت اليه بأصرة قريبة .

فى الفلسفة الحديثة اصطلاح وضعنا له « الفكرة الناسوتية » ترجمة ، ولست اعلم مقدار انطباق هذه الترجمة على الواقع ، غير أنى أستعمل الاصطلاح هنا ترجمة لكلمة « انثروبومورفزم » أى الفكرة الفلسفية القائلة بتزويد الله سبحانه وتعالى بشيء من الخصائص الانسانية والصفات البشرية . على أن مضينا فى الاعتقاد بأن الله ان تخرج صفاته (تجلت عن الشبائه) عن أشياء تتحيز فى أذهاننا حسب نماذجنا العقلية لامر فيه من الخلق بقدر ما نقول بأن الشمس تدور حول الارض أو أن اثنين واثنين لا يكونان أربعة أو بقدر ما ننكر وجود الحسوسات . أمر يتنافى لدى أول وهلة مع اعتقادنا بأن الله مخالف للحوادث بمقتضى انه علمها الاولى . غير اننا مع كل هذا لانستطيع أن نكون فى موجد الاشياء فكرة غير مصبوبة فى قالب تصوره لنا نماذجنا العقلية ، لان هذا يخرج عن طوق الذوات الغانية .

خذ لك مثلاً « اسبينوزا » فانه ابعده الناس عن الاعتقاد بأن الخالق مكون على نموذج عقله ، ولذلك قال بان الله عبارة عن « امتداد وفكر » غير أن دكتور « مارتينو » لم يلبث أن نضقه فكرته قائلاً من أين أتى له ان الله امتداد وفكر الا من

النظر في حالاته الطبيعية؟ ذلك لان الامتداد والفكر امران هما اخص ما تتصف به الاجسام والعقول . وعلى هذا فقس بقية ما ذهب اليه فلاسفة مثل هييجل وسبينسر وغيرهم .

فاذا رجعت بعد هذا الى فكرة أبي العلاء ، وجدت أن الرجل شاكلاً أدري في المحسوسات ، حسي في الظواهر الطبيعية . توحى اليه ألفة عقله بأن الله حكيم . ذلك لانه يقيس الحكمة في الله مطبقاً ايها على خصائص عقله . ولكنه ينكر انه بلا زمان ولا مكان لانه لا يستطيع أن يحتفظ بألفه عقله في الوقت الذي يمضي فيه معتقداً بأن هنالك شيئاً خارجاً عن الزمان والمكان ، في حين أن حالات جسمه الطبيعية وحواسه التي يدرك من طريقها ما هو خارج عن حيزه ، لا توسع مجال الاعتقاد في شيء خارج عن حد الزمان والمكان أو بطريقة أوضح عن حد الحركة ، لان الزمان والمكان شيئان أولهما قياس الحركة من جهة المتقدم والمتأخر ، وثانيهما سطح لا يعرف إلا من قياس وضع الاجرام ولا يدرك إلا من حركتها .

الى هذا وحده أعزو السبب في تسليم أبي العلاء بان الخالق حكيم ، واليه أعزو نكرانه بانه بلا زمان ولا مكان . فاذا أضفت الى ذلك قول المناطقة بان العلة الكاملة يجب أن يوجد معها معلولها عرفت كيف أن ابا العلاء انما يستند في قوله هذا الى المنطق فاذا قيل بان الله (سبحانه وتعالى) بلا زمان اقتضى ذلك القول بان معلوله أي الكون لا بدله من احدى حالتين : فاما انه قديم : واما انه حادث : فاذا كان قديماً قيل لك بانه مشارك للعلة في عدم الحد بالزمان . واذا كان حادثاً قيل لك بان علمته كانت ناقصة ثم كملت . وهكذا دواليك تدخل في بحث لن تعرف له من نهاية ، اذا ما أردت ان تذهب في بحث أبي العلاء من ناحية معتقده في الله لا بعد من قولك بانه كان لا أدرياً في المجرّدات والنظر الغيبي ، حسياً لدى نظره في نظام الطبيعة ، لا يرضى عن حقيقة إلا اذا قاسها على حالات جسمه الطبيعية ، تو إلا اذا أتمه من طريق الحواس أو اذا وافق القول بها ألفة عقليه .

والدلائل على شك أبي العلاء في التقاليد كثيرة فكتفي منها بقوله :
جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم إثر آدم
وقوله :

قال قوم ولا أدين بما قا
جهل الناس ما أبوه على الد
في حديث رواه قوم لقوم
لوه ان ابن آدم كابن عرس
هر ولكنه مسمى بحرس
رهن طرس مستنسخ بعد طرس
وقوله :

يقولون ان الجسم ينقل روحه
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
الى غيره حتى يهذبها النقل
اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

بل نذهب في عقيدة أبي العلاء الى شيء أكبر من هذا . نذهب الى أنه كان
جاحداً للاديان متشككاً فيها . أما شعره فيدل على كثير من الشك ومطاولات
اللاأدرية الممسوسة بأثر المرونة الفكرية الى حد بعد بعيد . ومن طبيعة الشك أن
يتراوح فيه الانسان بين شيء وتقيضه . على انك تجد أنه إن ذكر الدين بخير صرة
فانه انما يذكره بذلك الخبير ليصارحك من بعد ذلك بمجيوده له . وبانه لا يعتقد أن
باريء الكون ومدبر أمره قد يعنى بالحيوان المناطق عناية من يشفع اليه بالرسول تلو
الرسول ليهديه الصراط السوي . لهذا يتلخص ما نريد أن نقول في عقيدة أبي العلاء
في أنه كان جاحداً للاديان معتقداً بالله اعتقاداً ينزل الى نموذج مستمد من أحط
ناحية من نواحي الطبيعة البشرية هي ناحية ادراك الحس ، ولهذا لا يستطيع أن
يتصوره بلا زمان ولا مكان

وان أردت شواهد على جحوده الاديان فاليك بعض ما قال :

ومتى ركبت الى الديانة غالها
والعقل يعجب والشرائع كلها
فكر على حسن الضمير دسائس
خبر يقاد لم يقسه قانس
ومتعجبون ومسامون ومعشر
ومتنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبدًا ومساجد معمورة وكنائس
والصائبون يعظمون كواكبا وطباع كل في الشرور حبايس

فهو اذن يقول بان الشرائع تقليد وهو بقوله هذا انما يفسر حقيقة تلك
الفكرات التي تدس على حسن ضميره، أى على وراثته التقليدية التي يحاول دائماً أن
يرضيها اذا ما فكر في أمور الدين. وهو يقول بأن الجوس والمسامين والنصارى واليهود
والصائبين لم تهذب أديانهم من نفوسهم ولم ترك من طبيعتهم، ولذلك تراهم في الشرور
سواء وانهم شرع في حكم الطبع البشرى الرئيس في الدنيا . وتلك آية من آيات
جحدده للاديان. فاذا كان الدين شرع للهداية ثم عجز في رأى أبى العلاء عن تأدية
وظيفته، وان الناس بعد اتباعهم مراسيم الشرائع لا يزال طبع النشر غالباً فيهم!
فعلام الدين وعلام الشرائع وعلى أى شىء يبقى العقل من كل هذا؟
ثم ارجع الى قوله :

ان هلت أفواهكم فقلوبكم	ونفوسكم دون الحقوق مهله
آليت ما توارتكم بمنيرة	أن الفيت فيها الكيت محله
لا تأمنوا برق النعام فآتما	تلك السيوف من القضاء مسله
قال افتكار في الحوادث صادق	جعل الصعاب من الذاار منله
هفت الحنيفة والنصارى ما هتدت	ويهود حارت والجوس مضله

وعلى هذا يكون :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

هنا يتجلى لك أن أبا العلاء كان كما يقول المتأخرون «ديست» وهذا معتقدنا
فيه . أى انه كان جاحدا للاديان معتقداً بالله . فعنده أن أهل الارض اثنان أولها
ذو عقل . لا يسلم عقله بان معلولا يمكن أن يوجد بلا علة، ولذا فهو يعتقد بالله، أى
بعلة العلل وبارى الاشياء . وآخر ذو دين يجمع بين المتناقضات (في رأى
أبى العلاء) ولذا يكون بلا عقل. ثم عد الى قوله: —

ذين وكفروا بآبناء تقص وفر قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرد يوما بالهدى جيل

فالدين والكفر والنزاع فيهما والانباء التي تقصها كتب التنزيل عن
الاولين والفرقان والتوراة والانجيل انما هي في نظره اباطيل يدان بها، وانه لم يتفرد
جيل واحد من اجيال الانسانية بالهدى الذي يراه أبو العلاء. وما هو ذلك الهدى؟
هو ترك التقاليد الدينية التي لم يقصها ولم يفندها عقل مستقل، ثم معرفة الله سبحانه
وتعالى كل انسان بقدر ما تشمل عقائمه. والافلو اتبع جيل هدى جيل غيره لا يصبح
بمقتضى تنافر وجهات النظر من الاباطيل كما يقتضى تسلسل الفكرة عند
أبي العلاء. ويقول:

آله قادر وعبيد سوء وجبر في المذاهب واعتزال
وبالكذب انسرى وضح وليل ولم تزل انلطوب ولا تزال
ولولا حاجة في الذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتنص الغزال

فهو بذلك يعتقد في آله قادر برأ الاشياء وبرأ عبيد سوء ذهبوا الى جبر
واختيار في المذاهب واعتزال. ولا يدرك على فكرته في ذلك مثل قوله:

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على من يفعل
والله اذ خلق المعادن عالم أن الحداد البيض منها تجعل
سفاك الدماء بهارجال أعصموا بالخليل تلجم بالحديد وتنعل
لا تس نار في الضمير فراشة فضغائن الصدر الحريق المشعل

هو اذن ممن يقولون بالاختيار في أفعال الانسان. وهو اذن يعتقد بأن الله
لا يريد الشر وان كان يعلمه، وأن فعل الشر على ذلك من اختيار الانسان ومن
نتاج شهواته وانفعالاته، بل ومن مخترعات عقله. فالله عند ما خلق المعادن كان
يعلم أن السيوف المهنددة الباترة تصنع من صنف منها. ولكن من الذي سفاك

الدماء بها؟ سفكها بها رجال اعتصموا بظهور الخليل المطهمة وأججوها الحديد ليردو
جماحها ويسيرونها حسب إرادتهم .

يعتقد أبو العلاء أن الله خير محض لن يأمر بفعل الشر لان الخير المحض
لا يصدر عنه الا خيرا محضا . فكيف يمكن أن يعتقد انسان ينزه الله سبحانه
وتعالى بأن تصدر منه ارادة شر ويكون في يقينه بأن الله خير محض مخلصا لنفسه
ولضميره مرضيا لألفة عقله ؟ الله يعلم الشر أنه شر ولكنه لا يجعل ارتكابه على
انسان قدراً مقدورا كما يقولون ، والا لمتنافي مع بديهة العقل أن يستحق مرتكب
الكبائر عقابا ، أو فاعل الخير ثوابا . لان الانسان في تلك الحال لا يكون الا آلة
مسيرة حسب مشيئة الاقدار لا تستحق من مثوبة ولا عقوبة . بهذه الفكرة
يقول أبو العلاء ، وعليها يوافقه كثير من متنطسي الباحثين .

واعلمه تتاح لنا فرصة أخرى نوفي فيها هذا البحث حقه ونقارن بين فكرة
أبي العلاء الفلسفية وبين فكرة عمر الخيام ، فان ذلك يظهرنا على شيء من طبيعة
الفكر الانساني وكيف تنتقل الفكرات من جيل إلى جيل متدرجة في أشكال
من التغيير والتفاوت لانهاية لتنوع صورها .

برقين — ١٩٢٦